موقف حازم القرطاجني من الإسترفاد بالشعر

للدكتور قاسم المومني

جامعة اليرموك

عندما نتحدّث عن حازم القرطاجني فاننا نتحدّث عن ناقد له منزلته الخاصة في الموروث النقدي عند العرب، وله مكانته المتميزة بين معاصريه، بل بين سلفه وخلفه؛ وهي مكانة اكتسبها من جملة وجوه: فهو - من وجه - قد جاء في أخريات ازدهار الثقافة العربية في المغرب والاندلس، وكان من خصائص هذه الثقافة انها لم تتأثر بضعف أمر المسلمين وتساقط مجدهم السياسي في هذه البلاد، بل كانت في عصر التساقط أرفع منها في عصر العز والغلبة؛ فسجل حازم في كتابه «منهاج البلغاء وسراج الأدباء» ناحية من نواحي النضج التي بلغتها هذه الحضارة، يمكن أن تقارن بالناحية التي سجّلها ابن رشد في فلسفته، وابن خلدون في بحثه الاجتماعي. وكما ان الفلسفة وعلم الاجتماع لم يتقدما خطوة بعد ابن رشد وابن خلدون، كذلك

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

الجماعة، وهو دور يدرأ عن الشعر ـ دون شك ـ كل استرفاد يمكن ان يعلق بالشعر ويلحق به.

وليس ثمة مدخل يمكن ان ندخل منه الى بيان موقف الرجل من الاسترفاد بالشعر خير من التوقف عند تصوره الاخلاقي وصلة ذلك التصور بالشعر خاصة. واحسب اني في حاجة الى القول ـ هنا ـ ان التصور الاخلاقي الذي يبسطه حازم يفرض على المبدع أن يرتقي فوق كل استرفاد ويتطلب من الناقد أن يواكب المبدع في دفعه عنه بدلا من التقعيد له كما كانت غالبية النقاد العرب تفعل[1]

ان الانسان فيما يراه حازم مشدود في واقعه المعاش اما الى الفضيلة «الخير» واما الى الرذيلة «الشر». قد ترتبط الفضيلة في تصوّر حازم بايثار الانسان نفسه على بدنه وايثار غيره على نفسه وقد تقترن الرذيلة في ذات التصور بايثار الانسان بدنه على نفسه أو غيره على نفسه. المهم ان صلاح الانسان لن يتحقق الا اذا نحا نحو الفضيلة، وعلى هذا الاساس يقول حازم «فالفاضل من آثر نعيم نفسه الباقي على نعيم بدنه الفاني ومن انصف غيره من ذوي الاستحقاق فيما فيه نعيم بدنه الفاني أو آثره بذلك على نفسه. والايثار افضل ليعتاض بذلك ما يكون له سببا الى النعيم الباقي كالاجر أو ما يتنزل في توهمه منزلة النعيم الباقي كالذكر الجميل»[2]. وعلى الاساس ذاته لا يكون الفاضل فيما يقوله حازم الا «من حصلت له في الفضيلة ملكة، وصارت له عادة لا يفارقها الى ما ناقضها[3]. ولما كان الانسان في جميع ما

(١) راجع درويش الجندي: ظاهرة التكسب واثرها في الشعر العربي وفي نقده، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧٠م: ١٦٥ـ١٦٨.

(٢) منهاج البلغاء وسراج الادباء: ١٦٢.

(٣) المصدر نفسه: ١٦٨.

ينحو نحوه او يصدر عنه في واقعه المعاش لا يخلو من ان يروم حظوظا يكون فيها صلاح لنفسه أو حظوظا فيها صلاح لبدنه وكان استقصاء الانسان مصالح نفسه وابتغاؤه لها من كل وجه لا يصل منه الى غيره مضرة ولا ايذاء، وكان استقصاؤه حظوظ بدنه وطلبه لها من كل وجه يؤدي الى ضرر غيره والى ايذائه، وجب ـ والقول لحازم ـ ان يكون الفضل في القناعة من حظوظ البدن بما لا يؤدي الى مزاحمة ذي استحقاق وفي الرغبة في جميع حظوظ النفس[1].

الفضيلة في مجموع نصوص حازم التي أخذت من كلامه جوامعه هي ايثار النفس على البدن وتفضيل الغير على الذات، والفاضل من آثر نعيم نفسه الباقي على نعيم بدنه الفاني، وكل هذه امور لا تقع الا بالعدل والنصفة والايثار عند القيام بالافعال والاعمال. هذه الافعال والاعمال من حيث اقترانها بالفضيلة أو بنقيضها، تختلف رتبها في مقدار ما يجب عليها من الحمد والذم بحسب اختلاف الاحوال المطيفة بها، «والاحوال المطيفة بالافعال هي: الزمان، والمكان، وما منه الفعل، ما اليه الفعل، وما من اجله الفعل، وما عنده الفعل»[2]. وليس ثمة مفر من اعتبار هذه الاحوال عند الحكم على الافعال، فيكون الفعل بالنسبة الى حال منها محمودا، وبالنسبة الى حال اخرى مذموما، ويكون بالنسبة الى بعض تلك الاحوال في اقصى درجات الحمد، وتارة في ادنى الدرجات من ذلك، وكذلك تختلف ايضا حاله في درجات الذم بحسب اختلاف تلك الاحوال المطيفة «فاخذ أبي دؤاد الحق من ابنه وافادته بجاره الذي قتله يربي على كثير مما يجل عن فواضل

---

(١) المصدر نفسه: ١٦٩.

(٢) المصدر السابق: ١٠٧ وقارن بصفحة ١٦٣.

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

الشيخ اذا عشق جارية جميلة واردنا ان نصرفه عنها بالاقاويل الشعرية، اعتمدنا ذم الفعل وعيب التصابي في حال المشيب وما ناسب هذا. فان كانت قبيحة أو ممن يجوز تخييل القبح فيها اضفنا الى ذم تصابي الشيخ ذم قبح الفتاة. فان كان العاشق شابا اعتمدنا ذم ما في المرأة من قبح خلق وخلائق نحو ما يوصف النساء به من الغدر والملالة وغير ذلك. ولم نقبح عليه العشق في الشباب الا من جهة عقل أو نحو ذلك»[1] واذا كان هذا القول يشي بالجوانب التي تحدث فعل التزيين والتقبيح ذاته، فانه يشي في الوقت ذاته بالوسائل التي يتم بها فعل التزيين والتقبيح، وهي عند حازم اربع، اولها: اما ان يحسن الشيء من جهة الدين وما تؤثره النفس من الثواب على فعل شيء او اعتقاده، وتخاف من العقوبة على تركه واهماله واما ان يقبح من ضد ذلك. وثانيهما: اما ان يحسن من جهة العقل وما يجب ان يؤثره الانسان من جهة ما هو عاقل ذو انفة من الجهل والسفاهة واما ان يقبح من ضد ذلك. وثالثها: اما ان يحسن من جهة المروءات والكرم وما تؤثره النفس من الذكر الجميل والثناء عليه أو يقبح من ضد ذلك. ورابعها: اما ان يحسن من جهة الحظ العاجل وما تحرص عليه النفس وتشتهيه مما ينفعها من جهة ما تؤثر من النعمة وصلاح الحال أو يقبح من ضد ذلك[2].

هذه الوسائل الأربع التي نقلتها بلغة حازم تشكل عنده أساساً اخلاقياً ظل يصدر عنه في تحديده موقفه من الاسترفاد بالشعر، ويبدو هذا الاساس بصورة ابلغ وأوضح عندما يقول حازم ان التزيين والتقبيح قد يتعلق بالفعل الانساني من جهة ما يرجع اليه في نفسه، وقد يتعلق التزيين والتقبيح بالفعل

(١) حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الادباء: ١٠٨.
(٢) المصدر نفسه: ١٠٦.

من جهـة ما تكون عليه الاحوال التي تطيف به، المهم ان يكون التزيين والتقبيح طبقا للاشياء الـتي كأنها غايات تترامى اليها مطالب الناس. . . . وتلك الاشياء التي عليها مدار التحسينات والتقبيحات هي: الورع والعقل والمروءة، والشهوة في الحظ العاجل»[1]. وعلى هذا الاساس يقول حازم «والتحسينـات والتقبيحـات الشعرية تميل الى اشياء وتنصرف عن اشياء، وتكثر في اشياء وتقل في اشياء بحسب ما يكون عليه الشيء من التماس بآداب البشر، وما يكون عليه من نفع او ضرر، او لا يكون له التباس يعتد به في تأثر النفوس له من جهة نفع أو ضرر»[2]. ومعنى ما يقوله ـ بالتالي ـ ان اكتمـال العمـل الشعري لصيق اكتمال الحياة طالما ان الشعر يسعى الى تقديم العون ودفع الضرر، ولا قيمة ـ والامر كذلك ـ لشعر لا يحقق نفعا او يدرأ ضررا، ولا شأو لشعر لا يسمو بالانسان الى مستوى الكمال، ولا اهمية ـ بعد ـ لشعر يقوم على الاسترفاد طالما انه لا يفي الا بحاجات مبدعة فحسب.

الشعر ـ اذاً ـ مرتبط بالحياة، واكتماله لصيق كمالها، وما دام الأمر كذلك فان من المنطقي أن تكون الاصول التي يحقق بها العمل الشعري اكتمـالـه، هي الاصـول التي يتحقق بهـا للتجـربة الانسانية كمالها. ان الأقـاويل الشعرية تسعى الى دفع الضرر وجلب النفع» لما كان المقصود بالشعر انهاض النفوس الى فعل شيء أو طلبه أو اعتقاده أو التخلي عن فعله أو طلبه أو اعتقاده بما يخيل لها فيه من حسن أو قبح أو جلالة أو حسنة وحب ان تكـون موضـوعـات صنـاعة الشعر الاشياء التي لها انتسـاب لما يفعله

(١) المصدر نفسه: ١٠٨.

(٢) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

الانسان ويطلبه ويحققه»[1]. وما دام هذا المسعى غير مجانب لها فلا بدّ من ان تتمسك بمخطط اخلاقي يصل به الانسان الى الكمال. ولكن هذه الأقاويل لا تقدم قيم هذا المخطط تقديماً مباشرا وانما تقدمها تقديما شعريا فعالاً ومؤثراً يضيف الى المضمون الاخلاقي للشعر قيمة موازية في الاهمية، انها القيمة الجمالية التي تقترن بالمتعة الواقعة في تشابك العمل الشعري في اتساق وانتظام.

من هذه الزاوية يختلف الشعر عن العلوم المعنية بالسلوك، وهو اختلاف يعلل استجابة الناس للشعر ويفسر تأثيره في نزوعهم، ولذلك حرص حازم متابعا في ذلك اساتذته من الفلاسفة النقاد[2] على تأكيد جانبي المتعة الجمالية والنفع الاخلاقي في حديثه عن الاسترفاد بالشعر، ويتضح هذا التأكيد عندما يتحدث الرجل عن محاكاة المطابقة[3]، ويزداد هذا التأكيد وضوحاً عندما يقول «وربما كانت محاكاة المطابقة لا تخلو من ان تكون من قبيل ما يحمد ويذم. والنفس من شأنها أن تميل الى ما يحمد. . وتتجافى عما يذم فكأن التخييل بالجملة لم يخل من تحريك النفس الى استحسان أو استقباح، فلهذا كانت قوة محاكاة المطابقة في كثير من المواضع قوة احدى المحاكاتين التحسينية والتقبيحية، لكنها قسم ثالث على كل حال، اذ لم تخلص الى تحسين ولا تقبيح»[4] وهذا قول يشي باعلاء حازم من شأن محاكاة المطابقة لكنه اعلاء هين ان قورن بمثيله المتصل بمحاكاة التزيين والتقبيح، وهو هوان يرتد الى ضآلة الاثر الاخلاقي في الاولى بالنظر الى قرينه في الثانية.

---

(١) المصدر السابق: ١٠٦.

(٢) راجع قاسم المومني: نقد الشعر عند ابن رشد بين التأصيل النظري والتطبيق العملي، بحث منشور في مجلة «المعرفة» السورية، عدد ٢٢٩ سنة ١٩٨١: ٢٤ وراجع مصادره.

(٣) راجع حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الادباء: ٩٢.

(٤) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٣)

لقد أفاد حازم في تشكيله المخطط الاخلاقي الذي ظل يمتاح منه في رفضه الاستـرفاد بالشعر من النقاد الفلاسفة كما أسلفت، وقد دفعته افادته تلك الى استحضار الموروث النقدي السابق عليه وتأمله ولم يكن هناك من ناقـد يمكن لحـازم أن يتأثر به في هذا الصدد اكثر من قدامة ابن جعفر، فالرجل رغم كل ما قيل بحقه أو ضده[1] يعب من الاصول التي يعب منها حازم وهي الاصـول اليونانية، وبناء قدامة الاخلاقي الذي شيده ليعزز به فهمـه الخاص لاغراض الشعر يمكن ان يرفد حازما في دفعه كل استرفاد يلحق بالشعـر ورفضه له. صحيح ان حازما لا يتفق مع قدامة في تقسيم الشعر الى اغراض محددة منها الوصف والتشبيه، وصحيح ان مخالفة حازم قدامة تتعدى هذا الجانب لتشمل جوانب اخرى لا تقتضي طبيعة البحث ذكـرها[2]. المهم ان هذه الاختلافات بين الرجلين تمليها طبيعة الفوارق الفردية بينهما، والاهـم ان حازما يأخذ عن قدامة مفهومه الخاص بالفضائل الخلقية الاربـع وهي العقـل والعدل والعفة والشجاعة، ويعتمد عليها في تفريقه بين الحقيقي والزائف من المدح والذم، ويقتبس منه قوله: «لما كانت فضائل الناس من حيث هم ناس لا من طريق ما هم مشتركون فيه مع سائر الحيوان على ما عليه اهـل الاسبـاب، انمـا هي العقـل والعفـة والعـدل والشجاعة، كان القاصد للمدح بهذه الاربعة مصيبا وبما سواها مخطئا»[3].

---

(١) راجع لمعرفة ذلك قاسم المومني: نقد الشعر في القرن الرابع الهجري، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٨٢: ١٤٣ ـ ١٤٤.

(٢) راجع امثلة للاختلاف بين حازم وقدامة في منهاج البلغاء وسراج الادباء، ٤٨، ١٤١ ـ ١٤٢، ٣٣٦.

(٣) المصدر نفسه: ١٦٥.

ويأخذ عن قدامة رأيه في ان الفضيلة وسط بين طرفين مذمومين ثم يعقب عليه بقوله: ان الفعل العائد بمنفعة انما يحمد ما لم يعد الافراط فيه بمضرة، وما لم يكن من القلة والتقصير بحيث لا يغني، فاذا وقع وسطاً بين هذين الطرفين كان محمودا، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: خير الامور اوساطها، الا ترى ان الكرم اذا افرط عد سرفا وتبذيرا، والاقدام اذا افرط فهجم بصاحبه على المتالف في كل حين وموطن، عد ذلك تهورا وهوجا، واذا وقع التقصير عن الاقدام والبذل بالجملة او وقع عن ذلك ما لا اعتداد به، عُدّ ذلك بخلا وجبنا. وقد تكون قلة الشيء بحيث لا يوجب عليه حمدا ولا ذما. وجميع تلك الافعال انما تعد فضائل او رذائل فيستوجب عليها الثناء المطلق او الذم المطلق، ويعتقد في صاحبها انه خيّر او شرير، اذا حصلت له فيها ملكة وصارت له عادة لا يفارقها الى ما ناقضها، فان وقع الفعل المسمى فضيلة منه ولم يتبعه بمثله ولا تمادى عليه لم يستحق ان يسمى فاضلا، ولا ان يثنى عليه الثناء المطلق، فعلى هذا ايضا يجب ان يكون الاعتبار في وقوع الفعل المسمى رذيلة[1]».

ان حازما لا يتوقف في اعتماده على قدامة عند هذا الحد. وانما يتجاوزه لينصف قدامة من ناقديه، حسبنا ان نقتصر على من اقتصر عليهم حازم في منهاجه، لقد اقتصر حازم في انصافه قدامة من خصومه على الآمدي وابن سنان ولقد انطلق قدامة في معرض حديثه عن المدح من زاوية تلح على المضمون الاخلاقي للشعر، وتؤكد على فكرة النموذج الذي يستوعب الفضائل ولا يتخطاها فلا يمدح الرجل الا بما فيه. وهذه الزاوية وان اخذت بعين التقدير المواصفات الاجتماعية فقسمت مدائح الرجال الى

(١) المصدر السابق: ١٦٧.

اقسام تتناسب مع طبقات الممدوحين، لان اصحابها لا يمكن ان يعيشوا الا في عصرهم، فانها تشي - بالرغم من ذلك - بأن المدح الحق مقترن بالفضائل الاساسية للانسان كانسان، وان المدح الحقيقي هو الذي يمدح فيه الرجال بما يكون فيهم، ولا يتميز الرجال بعضهم على بعض الا باكتسابهم الفضائل، طالما ان الفضائل مكتسبة وليست موروثة كما افترض الآمدي وابن سنان[1].

اما الآمدي فقد انطلق في نظرته الى هذه القضية من زاوية الممدوح او الحاكم، او ما يمكن ان يجلب اليه البهجة والسرور او يضخم هيبته في اوهام الرعية كحاكم مطلق، يفترض ان يمدح سلفا بمجموعة من الصفات منها الجمال والجلال والهيبة والجهارة. وما دام الامر كذلك فلا بد للآمدي من ان يرى ان الفضائل والرذائل فطرية، توجد مع الناس بالقوة، ولعلهم يكتسبونها بالطبع والتطبع فذلك هو الاساس في الحكم على الناس وتميز بعضهم على بعض، ولا ضير والامر كذلك - في ان يقول الامدي بأن الوجه الجميل يزيد في الهيبة ويتيمن به العرب، لانه يدل على الخصال المحمودة، كما ان قبح الوجه والدمامة يسقط الهيبة او يدل على الخصال المذمومة وذلك ما تكرهه العرب وتتشاءم منه»[2]، ولا ضير والأمر كذلك - في ان يعقب على ما ذهب اليه قدامة - من ان المدح بالحسن والجمال، والذم بالقبح والذمامة ليس بمدح على الحقيقة ولا ذم على الصحة بأن ذلك من قبيل الغلط الفاحش المخالف لمذاهب الامم كلها عربيها أو أعجميها، فضلاً عن انه يسقط اكثر مدح العرب وهجائها وقد بينت قبح غلطه

(١) جابر عصفور: مفهوم الشعر: ١٥٣ - ١٥٤.

(٢) الآمدي: والموازنة بين ابي تمام والبحتري في شعريهما، تحقيق السيد صقر، دار المعارف القاهرة سنة ١٩٦١.

في هذا تبيينا شافيا مستقصى في كتاب منفرد»[1].

اما ابن سنان فان ما يقوله في مخالفة قدامة لا يفترق - في جوهره - عما قاله الآمدي في ذات الصدد، يقول ابن سنان معقباً على رأي الآمدي «ان كان قدامة يعتقد ان ذلك ليس بفضيلة لما كان الانسان قد خلق عليه، فهذا حكم جميع الفضائل النفسانية، فان الكريم قد خلق كريما والشجاع شجاعا والعاقل عاقلا، وكما لا يقدر القبيح الوجه على ان يستبدل صورة غير صورته، كذلك لا يقدر الجاهل على ان يستفيد عقلا فوق عقله»[2].

اما حازم القرطاجني فقد اعترض على ابن سنان والآمدي من قبله ورفض قولهما ان الكريم كريم بالقوة، وان الشجاع شجاع بالقوة، وان العاقل عاقل بالقوة، «لان الحكماء المتكلمين في الفضائل قد اتفقوا على ان الانسان قد يقدر على ان يكتسب بعض الفضائل بالتطبع وان يستكمل كثيرا مما ينقصه من ذلك بالاعتياد والرياضة ومجاهدة النفس، فينتقل برياضة النفس في ذلك حالا فحالا حتى يصير الصعب قبل التطبع والارتياض سهلا بعدها. وما زال الناس يروضون اخلاقهم بالتأديب والتدريب، فترقى بذلك في مراتب الفضل درجاتهم وتتهذب بعد الجفاء اخلاقهم. . . . فاما خلقة الانسان وصورته فليس في قدرته نقل شيء منها عما وجد عليه، فحمد الانسان بما يستحسن من هذا القبيل مخادعة له، وذمه بما يستقبح من ذلك تحامل عليه، ويشهد لهذا ما حكاه الرواة من ان المغيرة بن جبناء وزيادا الاعجم لم يزالا يتهاجيان حتى عيره زياد بعلل كانت

---

(١) المصدر السابق والجزء السابق: ٣٦٩.

(٢) ابن سنان الخفاجي: سر الفصاحة، تحقيق عبدالمتعال الصعيدي، مطبعة صبيح القاهرة، ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م، ٢٥٦.

اصابت بعض اهل بيته، فقال المغيرة: ما ذنبنا فيما ذكره، هذه ادواء، وانما يُعيَّر المرء بما اكتسبه [1]. واذا كان رد حازم على الآمدي وابن سنان ـ وهو رد حرصتُ على نقله رغم طوله ـ يكشف ـ من ناحية ـ عن انتصاره لقدامة من ناقديه، فانه يكشف ـ من ناحية ثانية ـ وهذا هو الاهم ـ عن اسناد حازم ما حكاه قدامة الى عادات العرب واعرافهم، بحيث يصبح مفهوم الفضائل النفسية موافقا للمألوف عند العرب، ويضيف اليه رأياً مؤداه، «وانما يمدح بما هو خارج عن الفضائل الاربع اذا كان من شأنه ان توجد الفضائل ابدا بوجوده فتورد كالأدلة عليه»[2].

ودون ان نقدم رأياً على آخر فنحكم لصاحبه او عليه، فان الذي يعنينا ان نقول ان تأكيد قدرة الانسان على الانتقال من الاخلاق الرذلة الى الاخلاق الفاضلة يعني ضِمناً قدرة الشعر على توجيه مسار السلوك الانساني، وتحويل هذا السلوك من الرذيلة الى الفضيلة، ولقد قيل «ان المخطط الاخلاقي الذي يحدد للشعر وظيفة يغدو مخططا فارغ المضمون ما لم يعتمد على التسليم بمقولة الاخلاق المكتسبة، وبدون هذا التسليم يظل الاثر الاخلاقي المصاحب للشعر بغير اساس واضح، بل يصبح امرا مشكوكا في صحته، وفي ظل هذا التسليم لم يكن لحازم بد من ان يقول ان أهم ما يميز الانسان عن غيره العقل، الذي ينبثق من مجاهدته كل الفضائل النوعية للنوع الانساني، وبهذا التسليم تتضاءل قيمة الأسرة او العرق او الثراء بالقياس الى نظائرها المنبثقة عن العقل»[3].

---

(١) حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الادباء: ١٦٩.
(٢) المصدر السابق والصفحة السابقة.
(٣) جابر عصفور: مفهوم الشعر: ٢٧٠.

(٤)

اذا كانت فلسفة حازم الاخلاقية التي عبر عنها في تصوّره السالف هي التي مكنته من تحديد مهمة الشعر[1]. فان الفلسفة ذاتها هي التي رفدت الرجل في دفعة الاسترفاد عن الشعر، وهو دفع يمكن ان نقف عليه في حديث حازم عن اغراض الشعر كلها، ونبدأ منها بالمديح، والابتداء هنا له ما يبرره، فالمديح هو الوسيلة المباشرة لما يستهدفه الشاعر المتكسب من وراء شعره من الكسب والمنفعة من ناحية، والمديح من ناحية ثانية ـ هو الغرض المباشر الذي يتطلع اليه من بيدهم المال والعطاء والسلطة[2] والمديح بسبب هاتين الناحيتين يشكل اكثر من غيره من اغراض الشعر معضلة بالنسبة للشاعر.

ويتقبل حازم في سبيل حل هذه المعضلة الحل الذي سبق لقدامة ان وضعه، وهو حل في تقدمه مندوحة عن اعادة القول فيه، يقول حازم «يجب ان يقصد في مدح صنف صنف من الناس الى الوصف الذي يليق به، وان يعتمد في مدح واحد واحد ممن يراد تقريضه بما يصلح له من تلك الفضائل وما تفرع منها وان لا يجعل الشيء منها حلية لمن لا يستحقه ولا هو من بابه»[3].

هذا الذي يقوله حازم عن ضرورة ألا يجعل الشاعر المدح «حلية لمن لا يستحقه ولا هو من بابه» جديد كل الجدة في التراث النقدي حتى عهده كما يعلم الباحث، قد نصادف من يقول قبله في ذات الموقف» واحمق

(١) المرجع نفسه: ٢٧١.
(٢) درويش الجندي: ظاهرة التكسب واثرها في الشعر العربي ونقده: ٨٠.
(٣) حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الادباء: ١٧٠.

الشعر عندي من ادخل نفسه في هذا الباب وتعرض له. وما للشاعر والتعرض للحتوف؟ وانما هو طالب فضل، فلم يضيع رأس ماله، لا سيما وانما هو رأسه، وكل شيء يحتمل الا الطعن في الدول، فان دعت الى ذلك ضرورة مجحفة، فتعصب المرء لمن هو في ملكه وتحت سلطانه اصوب واعذر له من كل جهة وعلى كل حال»[1]. فنفهم من هذا القول ان حازما اكثر صراحة في مواجهة الموقف منه ولكن الذي نصادفه عند نقاد التراث ـ في الاغلب الاعم ـ التأكيد على ان صانعي الشعر لم يكن لهم بد من اصطناع المشاعر والتأكيد على ضرورة مخاطبة كل طبقة على حسب قدرها وعلى حسب ما يؤمل من نفعها ونوالها او يخشى من بطشها وفتكها.

وقد نقرأ عند حازم قوله «فأما مدح الخلفاء، فيكون بأفضل ما يتفرع من تلك الفضائل واجلها واكملها كنصرة الدين، وافاضة العدل، وحسن السيرة، والسياسة، والعلم والحلم، والتقى، والورع، والرأفة، والرحمة، والكرم، والهيبة، وما أشبه ذلك. وينبغي ان يتخطى في أوصافهم حدود الاقتصاد الى حدود الافراط، وان يترقى عن وصفهم بفعال ما يكون حقا واجبا الى تقريضهم بما يكون من ذلك نافلة وفضلا[2]»، وقد نقرأ عند حازم

---

(١) ابن رشيق: العمدة في صناعة الشعر ونقده، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، مطبعة السعادة بمصر، ط٣: ١: ٧٥.

(٢) حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الادباء: ١٧٠. من المهم الا ننسى ان قبول حازم الافراط وتأكيده عليه لا يتعارض مع فهمه لماهية الشعر او مهمته، فضلا عن انه تأكيد يستلزمه الواقع الاجتماعي الذي كان يبسط ظلاله ايام حازم، وهو واقع يتحدث عنه بعض الدارسين فيقول: «ففي عصور الحكم الفردي التي عاش فيها حازم وامثال حازم كانت النفوس ترى في الملوك انصاف آلهة، وكان ما يقع في اوهام الناس من مخافتهم وتوقع بطشهم... اعظم بكثير من حقيقتهم وما يقع في العادة في امثالهم، فكان توخي القصد في مدحهم، في حقيقة الامر، مخالفة للاصل الاول في العمل الشعري وهو التخييل». شكري عياد: كتاب ارسطوطاليس في الشعر: ٢٧٠.

قوله ان «امداح الخلفاء يجب ان تكون نمطا واحدا ينحي بأوصافها ابدا نحو الافراط»(١). فنفهم من مجموع اقواله انه يؤكد الافراط، وهو تأكيد يمكن ان نجده عند المتقدمين عليه. الفارق بينه وبينهم ـ خلا قدامة ـ انه يقبله ويستسيغه ما دام غير مجانب للهدف الاساسي للشاعر وهو تصوير النموذج الانساني الذي تتحقق فيه الفضائل، وانهم يقبلونه كضرورة يفرضها واقع الشعراء الاجتماعي آنذاك.

قد توجد الفضائل في ذات الممدوح، فلا يعاني الشاعر ـ والامر كذلك ـ مشكلة في مدحه، ولكن المشكل يقع في الوقت الذي لا تتحقق فيه الفضائل في شخص الممدوح، ويتأتى حل هذا المشكل عند حازم من قوله ان الشاعر ينبغي الا يجعل من الفضائل حلية لمن لا يستأهلها، فضلاً عن ان الالحاح على مدح الممدوح بما يكون نافلة وفضلا يمكن ان يكون له مغزاه التربوي المتصل بالحكام انفسهم، وكأن مدح الممدوح بانكار الذات قد يدفعهم الى هذا الانكار بالفعل(٢)، والا فالصمت والبحث عن حكام آخرين أولى بالشاعر واخلق.

ومن الضروري ان نشير هنا الى ان حازما يرفض بشدة أن يقف الشاعر مسترفدا بشعره لأن مثل هذا الموقف هو الذي أدى الى هوان الشعر وتدني مستواه وقيمته وقلة شأن الشعراء، ويتجلى ذلك في قوله: «ولكثرة القائلين المغالطين في دعوى النظم. . . . وقلة العارفين بصحة دعواهم من بطلانها لم يفرق الناس بين المسيء والمسف الى الاسترفاد بما يحدثه وبين

(١) منهاج البلغاء وسراج الادباء: ١٧١.

(٢) جابر عصفور: مفهوم الشعر: ١٢٥.

المحسن المرتفع عن الاسترفاد بالشعر»[1]. ومثل هذا القول فضلاً عن انه يذكرنا بنظائره عند السابقين لحازم امثال الرازي ابي حاتم وابي عمرو بن العلاء[2]، فانه يكشف بوضوح بالغ عن نظرة حازم الى الشاعر، انه عند حازم ليس «طالب سيب» أو «طالب فضل» وانما هو «صاحب مهمة» لها فعلها وخطرها في حياة الفرد والجماعة، ولولا هذا الاعتقاد بأهمية الشعر ونفعه وجدواه لما نقل الرجل عن ابن سينا قوله «كان الشاعر في القديم ينزل منزلة النبي، فيعتقد قوله ويصدق حكمه، ويؤمن بكهانته»[3]، وهو نقل يعلي - دون شك - شأن الشاعر، ويجعله يتنزل منزلة أشرف الناس وافضلهم بدل منزلة اخسّ الناس وانقصهم، وهي منزلة تحقيقها موقوف على امرين: اعتراف الجماعة بالدور الذي ينهض به الشاعر وتقديرهم له من ناحية، واحساس الشاعر بأهمية الدور الذي يضطلع به في حياة الفرد او الجماعة من ناحية ثانية.

قد تتعدد اغراض الشعر عند حازم فتشمل المدائح والاهاجي والتعازي والتهاني، وقد ينظر حازم الى اغراض الشعر من زاوية الاحوال الانسانية التي يعالجها فتنقسم الاقاويل الشعرية بهذا الاعتبار الى الاقاويل المستطابة والاقاويل الشاجية والاقاويل الفاجعة، وقد يعالج الشعر ما يطلق عليه حازم الاغراض الجماعية، وقد يضيف الرجل الى كل هذه الاغراض ما يسميه «الاغراض الجمهورية». المهم ان اغراض الشعر عند حازم لا حصر لها[4]، والاهم ان حازما ينفي الاسترفاد في اي من هذه، وهو نفي يقوم

---

(١) حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الادباء: ١٢٥.

(٢) درويش الجندي: ظاهرة التكسب في الشعر العربي وفي نقده: ٢٥٣ وما بعدها.

(٣) حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الادباء: ١٢٤ وقارنه بصفحة ١٢٢.

(٤) شكري عياد: كتاب ارسطوطاليس في الشعر: ٢٤٦.

على صلة الشعر بالجماعة من جهة وعلى ضرورة ان ينبع الشعر من اعتقاد بنفعه وجدواه أو كما يقول حازم «عن فكر ولع بالفن والغرض الذي، القول فيه»[1] ولا شك ـ والامر كذلك ان الذي يقول عن رغبة أو رهبة ادنى منزلة ـ في مجال المفاضلة ـ من الذي «لم يقل رغبة ولا رهبة».

ان الشعر في اغراضه السابقة كلها يعالج الموضوعات التي تقع في دائرة المعرفة الانسانية، ويهدف في معالجته لها الى ايلاع النفوس بفعل شيء أو اعتقاده أو التخلي عن فعله أو اعتقاده وذلك «بأن يخيل لها أو يوقع غالب ظنها انه خير او شر، بطريق من الطرق التي يقال بها في الاشياء انها خيرات او شرور»[2].

ان الاشياء التي يقال فيها انها خيرات وشرور او يتوهم انها كذلك منها امور يشترك في معرفتها وادراكها الخاصة والعامة ومنها امور ينفرد بادراكها ومعرفتها الخاصة دون العامة. المهم ان الشاعر ينبغي ان يكون اوفر حظا من غيره في معرفته بكل ذلك ما دام معنيا في كل ما له علقة بهموم الانسان وآماله. وعلى هذا الاساس فان اعرق المعاني في الصناعة الشعرية هي ما اشتدت علقته باغراض الانسان، وكانت دواعي آرائه متوفرة عليه، وكانت نفوس الخاصة والعامة، قد اشتركت في الفطرة على الميل اليها او النفور عنها، اما ما لم تتوفر دواعي اغراض الانسان عليه وما انفرد بادراكه المكتسب الخاصة دون العامة فانه غير عريق في الصناعة الشعرية[3].

قد تتفاوت استجابة الجماعة للشعر وتأثرها لمقتضياته. فتضعف او

(١) حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الادباء: ٣٤١.

(٢) المصدر السابق: ٢٠.

(٣) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

تقل بحسب قرب الشعر من حياة الجماعة او بعده عنها. المهم ان الاستجابة لن تتحقق الا اذا كان الشعر حميم الصلة بحياة الجماعة، ولذلك يقول حازم «ان الالتذاذ بالتخييل او المحاكاة - الشعر - انما يكمل بأن يكون قد سبق للنفس احساس بالشيء المتخيل، وتقدم لها عهد به»[1]. واذا كان هذا القول يشي بأن الشعر يمكن ان يعالج ما هو مرئي بالنسبة للانسان فانه يشي بأن الشعر يمكن ان يعالج جواني مستورة قد لا تظهر الى مستوى الادراك العادي، وبالجملة فان «الشاعر يحتاج الى ان تكون له معرفة بنعوت الاشياء التي من شأن الشعر ان يتعرض لوصفها، ولمعرفة مجاري امور الدنيا وانحاء تصرف الازمنة والاحوال، وان تكون له قوة ملاحظة لما يناسب الاشياء والقضايا الواقعة من اشياء تشبهها، وقضايا متقدمة تشبه التي في الحال»[2].

ان علقة الشعر بحياة الجماعة قوية، ولشدة علقة الاقاويل الشعرية بالاغراض الجماعية كانت اشد تحريكا للنفوس واعظم اثرا فيها من غيرها. هذه العلقة تتطلب من الشاعر انماطا متنوعة في التناول تنوع المقاصد ذاتها، ففي الاغراض الجمهورية في الشعر وهي التي يراد بها استثارة الافعال الجمهورية او كفكفتها بالاقناعات والتخاييل المستعملة فيه»[3] يمكن للشعر استغلال امكانات الخطابة في ايقاع التصديق وايلاع النفوس بفعل شيء او التخلي عن فعله «لان صناعة الشعر تستعمل يسيرا من الاقاويل الخطابية، كما ان الخطابة تستعمل يسيرا من الاقاويل الشعرية

(١) المصدر نفسه، ١١٨.

(٢) المصدر نفسه: ٤٠.

(٣) المصدر السابق: ٤١.

لتعتضد المحاكاة في هذه بالاقناع في تلك بالمحاكاة»[1]. صحيح ان لب الشعر وجوهره التخييل وان اساس الخطابة الاقناع ولكن الصحيح ايضا ان التخييل يرمى في جزء منه الى شيء غير بعيد من الاقناع طالما ان الغرض من الصناعتين واحد وهو: «أعمال الحيلة في القاء الكلام من النفوس بمحل القبول لتتأثر لمقتضاه»[2]. وبسبب من هذا الاتفاق بين الصناعتين في المقصد ـ الغرض ـ ساغ للشاعر ان يخطب وللخطيب ان يشعر ولكن على جهة الالماع في الموضع بعد الموضع، ولقد قال الشاعر:

وما الشعر الا خطبة من مؤلف   يجيء بحق او يجيء بباطل[3]

واذا اضيف الى ذلك ان النفوس تسأم التمادي على حال واحدة وتؤثر الانتقال من حال الى حال وتستريح الى استئناف الامر بعد الامر واستجداد الشيء بعد الشيء ليستجد نشاطها بتجدد الكلام عليها ـ او كما يقول حازم عن النفوس «ان شيمتها الضجر مما يتردد والولع بما يتجدد»[4] ـ ادركنا ـ والامر كذلك ـ ان استغلال طرائق الخطابة في ايقاع فعل الاقناع يمكن ان يفيد الشعر في الاغراض الجمهورية، وعلى هذا الاساس يمكن ان نفهم ما يقوله حازم من ان ارداف التخييلية في الطريقة الشعرية بالاقناعية والاقناعية في الخطابة بالشعرية» أعود براحة النفس، وأعون على تحصيل الغرض»[5].

هناك ثمة وسائل تعضد طريق الخطابة في ايقاع فعل الاقناع، منها

---

(١) المصدر نفسه: ٢٩٣.

(٢) المصدر نفسه: ٣٦١.

(٣) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٤) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٥) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

أن يلجأ الشاعر الى الكذب، ومنها ان يعمد الى الايهام والتمويه، وهي وسائل لا تختلف برمتها عن وسائل الاقناع والاستدلال في المنطق[1]، المهم ان يستخدم الشاعر هذه الوسائل بنوع من (التلطف) أو «الدلة» لايقاع الحيل التي هي الاساس في ايلاع النفوس بفعل شيء أو النفرة منه، ولا يقل عن هذا اهمية ان هذه الوسائل بالجملة هي التي يتوقف عليها النجاح في الجمهوري من الاغراض، فضلا عن ان هذه الوسائل بالتالي تتجاوب مع تصور حازم الاخلاقي للشعر»، وانما ساغ في الشعر وقوع الكذب. . . اذ المقصود بالشعر الاحتيال في تحريك النفس لمقتضى الكلام بايقاعه منها بمحل القبول بما فيه من حسن المحاكاة»[2] وهو التصور الذي لا تتعارض فيه الغاية مع الوسيلة ما دامت الغاية هي التي تفرض الوسيلة وما دام جلالها يبسط ظلاله على كل الطرق المؤدية اليه[3].

ان تأكيد حازم المستمر على علاقة الشعر بالجماعة هو الذي دفعه الى التقدير اللافت للاثر الذي يمكن للتاريخ من جهة وللحكمة من جهة ثانية ان يوقعاه في هذا الصدد، اعني فيما يتصل بصلة الشعر بالجماعة. اما الحكمة فان اهميتها ترتد الى اعتبارها «مثالا لكيفيات مجاري الامور والأحوال وما تستمر عليه أمور الأزمنة والدهور»[4]، وتأثير الحكمة في الشعر رهين قدرتها على الاقناع خاصة عندما تتناغم التجارب المكثفة مع «حال من قصد به القول او وضع له»[5]. فتحدث في المتلقي ـ والامر كذلك ـ استجابة

---

(١) قاسم المومني: نظرية الشعر عند ابن سينا، بحث منشور في مجلة المورد العراقية، المجلد العاشر، العدد الثاني: ١٤٠١.١٧هـ/ ١٩٨١م.

(٢) حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الادباء: ٢٩٤.

(٣) جابر عصفور: مفهوم الشعر: ٢٧٧.

(٤) حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الادباء: ١٥٥.

(٥) المصدر نفسه: ٦٧ وقارن بصفحة ٢٢١.

مقترنـة بالاقناع، وعلى هذا الاساس يمكن للحكمة ان تأتي على سبيل الاستدلال «لتوطن النفوس على ما لا يمكنها التحرز منه او لا يحسن بها التحرز من ذلك، ولتحذر مما يمكنها التحرز منه ويحسن بها ذلك، ولترغب فيما يجب ان ترغب فيه وترهب مما يجب ان ترهبه، وليقرب عندها ما تستبعده ويبعد ما تستقربه وليتبين لها أسباب الامور وجهات اتفاقات البديعة الاتفاق منها»(١).

أما التاريخ فان اهميته ـ في الشعر ـ تقع فيما تحمله العودة اليه من استحضار العظة والعبرة، وهو امر لا يختلف في جوهره عما يمكن للحكمة ان تحدثه. ان الشعر عندما يعمد الى المأثور ـ التاريخ ـ فانما يعمد اليه لا على اساس انه امر قد انبتر واندثر وانما يعمد اليه على اساس انه فعل يمكن ان يؤثر في المعهود ـ الحاضر ـ تأثيرا يوجه مساره على نحو افضل وذلك عن طريق «الاحالة».

قد يعني مصطلح «الاحالة» ـ عند حازم ـ الايماء الى وقائع التاريخ او معالجة هذه الوقائع معالجة تصل المأثور بالمعهود، وقد تتنوع الاحالة عند حازم لتشمل «احالة التذكرة، او احالة المحاكاة، او احالة الاضراب، او احالة الاضافة»(٢)، ودون ان نفصل القول في صنوف الاحالة صنف صنف فان الذي يعنينا ان نقول ان الاحالة على الجملة متصلة بمقاصد الشعر الجمهورية مما يفرض على الشاعر عند محاكاة المعهود بالمأثور او احالته به عليه او استشهاده عليه به ان يوقع التوافق بين مقاصد كلامه ووقائع التاريخ واحداثه، وهو توافق يقتضي من الشاعر ان يراعي الانتقاء من وقائع التاريخ.

---

(١) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٢) المصدر السابق: ٢٢١.

وتلعب القصص والامثال هنا دورا لافتا ذلك ان «ملاحظات الشعراء الاقاصيص والاخبار المستطرفة في اشعارهم ومناسبتهم بين تلك المعاني المتقدمة والمعاني المقاربة لزمان وجودهم، والكائنة فيها التي يبنون عليها اشعارهم مما يحسن في صناعة الشعر. ويجب للشاعر ان يعتمد من ذلك المشهور الذي هو اوضح في معناه من المعنى الذي يناسب بينه وبيته ويعلقه عن طريق التشبيه، او التنظير، او المثل، او غير ذلك. ويسمى ما تسبب الى ذكره من القصص المتقدمة المذكورة بذكر قصة او حال معهودة، الاحالة، لان الشاعر يحيل بالمعهود على المأثور»[1]. ومعنى ما يتوله حازم ـ كما افهم منه ـ ان العودة الى الاخبار المأثورة ـ التاريخ ـ مرتبطة اصلا بالوقائع المعهودة ـ الحاضر ـ وان المشابهة بين هذه وتلك امر لازم لتحقيق الربط المؤثر في ذهن المتلقي، ولقد قيل ان الاحالة الى الذائع المشهور يعين على تحقيق هذا الربط بصورة افضل[2].

ان الحاح حازم المتصل على علقة الشعر بالجماعة يعني الحاحه على المهمة الاخلاقية له، ويعني ـ وهذا هو الاهم ـ نفي الاسترفاد به لتعارضه اصلا مع هذه المهمة، وتتهاوى في غمرة هذا الالحاح او بسببه الجوانب الخاصة للشاعر المبدع بحيث تبقى الجوانب المتصلة بالتوجيه والارشاد، والتعليم والتهذيب هي الجوانب الاكثر وضوحا، ولكن حازما رغم كل ذلك يتقبل الجوانب الفردية الخاصة بالشاعر لانه لا ينكر اصلا تعدد جوانب الحياة الانسانية وتنوعها من ناحية وهو تنوع يستلزم ـ حتما ـ تنوع ضروب الشعر في التعامل معها من ناحية اخرى.

---

(١) المصدر نفسه: ١٨٩.

(٢) جابر عصفور: مفهوم الشعر: ٢٧٨.

ومن المنطقي طالما ان الشعر لا ينفك يتصل بالجماعة ان تتعدد مضامينه وتتنوع طرائقه وتختلف اغراضه، والتعدد في كل ذلك مواز لتعدد جوانب الحياة الانسانية مساو لها. ولما كان الناس في دنياهم منقسمين بحسب احوالهم اقساما ثلاثة وكانت احوال القسم الاول احوالا مفرحة او منعمة وأحوال القسم الثاني أحوالاً شاجية وأحوال القسم الثالث احوالا فاجعة، وجب ان تكون الاقاويل الشعرية ـ والقول لحازم ـ منقسمة بهذا الاعتبار، فهناك الاقاويل المنعمة وهناك الاقاويل الشاجية وهناك الاقاويل الفاجعة.

اما الاحوال المنعمة فهي التي تكون «مفرحة محضة يذكر فيها لقاء الاحبة في حال وجوده واجتلاء الروض والماء وما ناسبهما والتنعم بمواطن السرور ومجالس الانس»[1] وامثلتها نحو ان يذكر العناق اللثم وما ناسب ذلك من الملموسات والماء والخضرة وما ناسب ذلك من المبصرات، مثل ان يذكر الغناء والزمر والعزف ونحو ذلك من المسموعات، ونحو ذلك الخمر ونحوها من المطعومات، وتشمل الاحوال المنعمة اضافة الى كل ما تقدم مجالس الانس ومواطن السرور ومشاهد الاعراس والاعياد وما شاكل ذلك[2]. وكل هذه الاحوال تقوم بدور الترفيه عن الانسان وتجعله يستشعر اللذة والمتعة في تجشمه المشقة للوصول الى السعادة.

وعلى أساس هذا الترفيه أو «الامتاع» الذي يقترن بالاحوال المفرحة او المنعمة، يفهم حازم شعر المجون على الجملة فهما لا يفارق تصوره الاخلاقي ابدا، ويصبح هذا الشعر مقبولا على اساس من هذا التصور، ومن

(١) حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الادباء ٢١-٢٢.

(٢) المصدر نفسه: ٣٥٧.

هنا يعقد الرجل مقارنة بين ما يسميه «طرق الجد» في الشعر «وطرق الهزل». ان طرق الجد فيما يقوله حازم «مذهب في الكلام تصدر الاقاويل فيه عن مروءة وعقل بنزاع الهمة والهوى الى ذلك»[1]، أما طرق الهزل فانها عند حازم «مذهب في الكلام تصدر الأقاويل فيه عن مجون وسخف بنزاع الهمة والهوى الى ذلك»[2]. ومن المنطقي والفارق بين الطريقتين ما ذكره ان يكون الواجب في معاني الطريقة الجدية «ان تكون النفس فيها طامحة الى ذكر ما لا يشين ذكره ولا يسقط عن مروءة المتكلم، وان تكون دون ادنى ما يحتشم من ذكره ذو المروءة او يكبر نفسه عنه»[3]، وان يكون الواجب في الطريقة الهزلية «ان تكون النفس في كلامها مسفة الى ذكر ما يقبح ان يذكر، والا تقف دون اقصى ما يوقع الحشمة. والا تكبر عن صغير ولا ترتفع عن نازل»[4]. وتتناغم اداة كل من الطريقتين مع مضمونها، فتتحرى طريقة الجد في عباراتها المتانة والرصانة وقد يسوغ فيها ايراد الوحشي والغريب. اما طريقة الهزل فقد يتسامح فيها باستعمال الالفاظ الخسيسة والعبارات الساقطة، وقد تأخذ الاولى بطرف مما في الثانية كما تأخذ الثانية بطرف مما في الاولى[5].

قد نقول ان ما يقوله حازم في معرض مقارنته بين الطريقتين «الجدية والهزلية» يمكن ان نقع على اصوله عند نقاد من الفلاسفة امثال ابن رشد وابن سينا والفارابي، وان الجميع ينهل من النهاء الارسطي ولقد قيل ان كلا

---

(١) المصدر السابق: ٣٢٧.

(٢) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٣) المصدر نفسه: ٣٢٩.

(٤) المصدر نفسه: ٣٣١.

(٥) المصدر نفسه: ٣٢٩.

المصطلحين ـ طرق الجد وطرق الهزل ـ قد استخدما منذ فترة مبكرة في النقد العربي وان المزج بين الطريقتين يستند الى تبرير فحواه ان النفوس ربما ملت الحق، ولذلك فهي تحتاج الى ان تمتري نشاطها وتبقى جمامها بشيء من الهزل، وهو تبرير تضرب جذوره، في النقد العربي المبكر[1]، وقيل ان مجمل ما اورده حازم في طريقتي الجد والهزل انما هو تطبيق مخلص لتقسيم ارسطو للشعر الى تراجيديا وكوميديا على فنون الشعر الغنائي[2]. ولكن علينا ان نلاحظ ان حازما عندما يستحسن ارداف الجد بالهزل او اعضاد الهزل بالجد، فانما يؤكد بطريقة او بأخرى انطواء الهزل على مدلول اخلاقي يتمثل ـ على صعيد ـ في تدارك للنفوس من ايلامها بالشاجي الصرف بأن تعرض عليها المعاني التي تلتذ بتخييل ما يعني بها وان آلمها مغيبه او انقضاؤه؛ ويتمثل ـ على صعيد آخر ـ في ان ذا الجد تحركه معاني الهزل وتطربه وان لم يكن من شأنه[3]. ولقد قيل ان الهزل برمته بما يتيحه للانسان من ترفيه ومتعة انما يمكن الانسان من مواجهة جهوده لتحقيق السعادة[4]، وهو امر يؤكد ـ بالتالي ـ ان الشعر في معالجته لكل الجوانب الانسانية انما يؤكد الفضيلة بدرجاتها المتنوعة ويمثل هذا التأكيد ينداح الاسترفاد الرخيص بالشعر او الاستدرار الهين به.

ان الدور الذي ينهض به الشعر في معالجته جوانب الحياة الانسانية المتصل منها بالاحوال المنعمة هو الدور الذي يقوم به في معالجة الجوانب ذاتها ما اتصل منها بالاحوال الشاجية والفاجعة. اما الاحوال الشاجية «فهي

(١) جابر عصفور مفهوم الشعر: ٢٨٤.

(٢) شكري عياد: كتاب ارسطوطاليس في الشعر: ٢٧٧.

(٣) المصدر السابق: ٢٣٠.

(٤) جابر عصفور: مفهوم الشعر: ٢٨٦.

ان تذكر فيها مستطابات قد انصرمت فيلتذ لتخيلها ويتألم لفقدها»(١) وامثلتها ان توضع فيها الوحشة موضع الانس والكدر بدلا منها الصفاء والجور محل العدل والاساءة مكان الاحسان، ومن امثلة هذه الاحوال اعقاب التنعم بالوطن المؤنس بالتألم لفراقه واعقاب التنعم بالزمن المسعد بالتألم لفراقه، ومنها احوال كان الجور منها وضع موضع العدل والاساءة موضع الاحسان، ومنها تشكي جور الزمان وخون الاخوان وجري الامور على غير ما يلائم ذا لفضل، واكثر الناس فيما يورده حازم «لا يخلو عن بعض هذه الاحوال»(٢).

اما الاحوال المفجعة فهي التي «يذكر فيها الانسان ما يلحق العالم من الغير والفساد ومآل بني الدنيا الى ذلك»(٣)، بالجملة فان المعاني في هذه الاحوال المفجعة هي «اضداد المعاني المفرحة المنعمة»(٤). واذا كانت هذه الاحوال ـ الفاجعة والشاجية ـ تحمل معها تمرد الانسان على وضعه المتردي ورفضه، مثلما يمكن ان تحمل معها الم الانسان المرافق لكل وضع متوتر(٥)، فان الشعر عندما يعالجها انما ينهض بدور ايجابي فعال عندما يؤكد تجاوز الانسان للمتردي من الوضع بعد رفضه له. وعندما يقدم البهجة من خلال ظلمة الفجيعة والامل من خلال عتمة الشجو، وهو دور يؤكده حازم عندما يقول «انه اذا تمادى استمرار الشاعر في الاسلوب على معاني من شأن النفس ان تنقبض عنها وتستوحش منها فقد يحق عليه ان يؤنس النفوس من استيحاشها ويبسطها من قبضها»(٦). وعندما يقول «ويجب ان تؤنس النفوس

(١) حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الادباء: ٢٢.

(٢) المصدر نفسه: ٣٥٨.

(٣) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٤) المصدر نفسه: ٢٢.

(٥) جابر عصفور: مفهوم الشعر: ٢٨٢.

(٦) حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الادباء: ٣٥٩.

عند استجمامها من توالي المعاني التي من شأنها ان تقبضها يناسب بينها وبين تلك مما شأنه ان يبسطها»[1]، وهذه اقاويل تشي بتآزر اغراض الشعر بعضها ببعض، وهو تآزر كمثل تآزر الاحوال الانسانية وتكاملها، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية فانها اقاويل تشي بالاقتران الشديد بين الشعر في اغراضه المختلفة وبين السلوك الانساني في اوضاعه المتعددة، والشأن في ذلك هنا كمثل ما كان عليه في الاحوال السارة على السواء.

(٥)

يمكن ان نقول ـ بعد كل ما تقدم ـ ان الشعر يهدف ـ في المحك الاخير الى السمو بالانسان والارتفاع به عن مستوى الضرورة. ومن الطبيعي ان ينظر حازم الى الشاعر ـ والامر كذلك ـ باعتباره صاحب فعل جلل وامر مؤثر في حياة الفرد والجماعة وليس صاحب استرفاد مسف او طالب عطاء ذليل او قاصد سبب رخيص. واياً كان الاختلاف مع الرجل في تفاريق نظرته فاننا لا يمكن الا ان نسلم بالأساس الذي ظل يمتري منه في موقفه من الاسترفاد بالشعر.

قد لا يصل الناقد المعاصر الى ما توصل اليه حازم في معرض مقارنته بين الشعر والخطابة، فيرفض اصلا ان تكون المغالطة والتمويه اساسا للاستدلال والاقناع ويرفض اساسا ان يكون التأثير الذي يحدثه الشعر قرين الكذب والايهام. وقد يوجد الناقد المعاصر بين طرق الجد والهزل ـ هذا ان كان في الفن هزل ـ على اساس من الوحدة التي تجمع بين طرائق الشعر في المقصد والقيمة، وقد لا يرى الناقد المعاصر رأي حازم في ان الاخلاق

(١) المصدر نفسه: ٣٥٨.

الفواضل هي التي تصل بالفرد او الجماعة الى الكمال او السعادة باعتبار ان الاخلاق ليست الا محصلة لعلائق الجماعة المتشابكة. ان التأكيد على الاخلاق وحدها دون اعتبار لمكوناتها تأكيد يمس ظاهر الاخلاق دون ان يصل الى جوهرها، فضلا عن ان مطالبة الشاعر بالثبات عند الثوابت من الاخلاق الفواضل يعني بالضرورة حصر مهمة المبدع في جانب واحد واعني به معالجة ما هو كائن فحسب. ولقد قيل ان الشعر لا يصور الوجود كما هو وانما يصور مثاله[1].

قد نقول ان تأكيد حازم على هذا الجانب كان له ما يبرره ويسوغه، فالاسترفاد بالشعر قد كثر في عهده، والمغالطون في دعوى النظم كثر في ابانه وكل هذه امور ادت بالشعر الى التدني وبالشعراء الى الهوان والصغار، وقد نقول ان حازما كان يحيا في وقت ـ القرن السابع الهجري ـ كان يرافقه فيه احساس دائم بالغربة لغياب الاخلاق الفواضل فيه من ناحية، ولاستبداد الحكام من ناحية ثانية، وللتخلف بمستوياته المتعددة من ناحية ثالثة، وكل هذه امور تقف وراء الحاح حازم على مطالبته الشاعر بالتوقف عند الاخلاق الفاضلة فبمثل هذا الالحاح قد تعود للشعر نضارته وبمثل هذا الالحاح ينداح الاسترفاد عن الشعر. .

ولكن مهما كانت التبريرات التي تفسر تأكيد حازم على مطالبة الشاعر بالثبات عند الثوابت من المبادىء والقيم فان الذي لا شك فيه ان مهمة المبدع تخطي الكائن منها الى ما ينبغي ان يكون عليه منها لا على مستوى الفرد ولا على مستوى الجماعة وانما على المستوى الانساني برمته. وعند هذا الحد يمكن لمضمون الشعر الاخلاقي ان يفهم فهما ارحب يتعدل

(١) شكري عياد كتاب ارسطوطاليس في الشعر: ٢٧١.

خلاله مفهوم شعر المجون على الجملة، وعند هذا المستوى يصبح الشاعر في غير حاجة الى الكذب ويغدو في اشدها الى ان يعرف متلقية بما عنده من الامكانات الخاصة بفنه جدا[1]، بتردي وضعه ويغذي فيه رغبته في التغيير والتبديل والتخطي في آن، وعند هذا المستوى بالتالي يغدو التفريق بين طرق الجد والهزل امرا غير ذي شأن طالما ان المعول في الفن على الاثر الكلي للشعر في الانسان، وقدرة الشعر على ان يبده متلقية بالمفارقات الكامنة في العالم الذي يعيش فيه[2].

وأيّاً كان الاختلاف بين حازم وبين الناقد المعاصر فلا يمكن للاخير الا ان يسلم بدقة منهج الاول في موقفه من الاسترفاد واتساقه، ولا يمكن له الا ان يتفق معه في الاساس الذي ظل يغذي موقفه وهو التأكيد المتواصل على وصل الشعر في اكتماله بالحياة الانسانية في كمالها، والتعامل مع الشعر باعتباره الاداة التي ترتقي بالانسان وتسمو به، وهنا يعالج حازم جانبا بالغ القيمة في بيان موقفه من الاسترفاد بالشعر، وهو جانب لا ينفك يتصل بعلقة الشعر بالجماعة، من حيث ما يستلزمه الموقف من المبدع والمتلقي في آن من متطلبات متساوية القيمة.

ان الشعر في تصور حازم ـ يكتسب قيمته من جلال غايته، وهو جلال جعل الشاعر مثل النبي يتبوأ منزلة اشرف الناس كما أسلفت. ويتطلب هذا الجلال من المبدع ان يكون فوق غيره ادراكا ومعرفة، وان يكون اكثر من غيرة قدرة على استحضار المأثور واستيعاب المعهود، وما دام الشاعر صاحب

(١) راجع هذه الامكانات عن قاسم المومني: نقد الشعر عند ابن شد بين التأصيل النظري والتطبيق العملي، بحث منشور في مجلة المعرفة السورية، عدد ٢٢٩، آذار ١٩٨١ : ٣٠.

(٢) جابر عصفور: مفهوم الشعر: ٢٨٧ـ٢٨٨.

فعل جلل فان من المنطقي ان يكون اكثر من غيره خبرا ومعرفة . ومن هنا تبدو المعرفة بأصول الصناعة الشعرية امرا مهما، ويساوي هذا الامر في اهميته ان يكون الشاعر عميق الادراك للتجربة الانسانية . ان رحابة المعرفة اصل لازب لمعرفة انحاء تصرف الازمنة ومجاري امور الدنيا طالما ان الاصل الذي به يتوصل الى استثارة المعاني واستنباط تركيباتها هو «التملوء من العلم بأوصاف الاشياء، وما يتعلق بها من اوصاف غيرها، والتنبه للهيئات التي يكون عليها التأم تلك الاوصاف وموضوعاتها، ونسب بعضها الى بعض احسن موقعا من النفوس، والتفطن الى ما يليق بها من ذلك بحسب موضع وعرض غرض»[١].

قد نقول ـ مثل حازم ـ ان المعتبر في حقيقة الشعر انما هو التخييل[٢]، فنعزف بهذا القول على اوتار عزف عليها الاسلاف من النقاد الفلاسفة ولكن الخيال لا يمكن ان يبدع شيئاً لم يؤد اليه الواقع الخارجي بصورة من الصور، ان فاعليته مقترنة بالقدرة على الانتهاء الى العلائق الكامنة بين الاشياء وفيها، مثلما هي مقترنة باستيعاب تجارب الانسان في المأثور والمعهود ولقد قيل ان القدرة التخيلية تمكن الشاعر من اعادة تشكيل تجاربه التي مر بها بشكل او بآخر بحيث يشكل منها تجارب جديدة، قد لا يكون عاناها واقعيا، وان عاناها تخيليا[٣]. وقال حازم لما كان القول في الشعر لا يخلو من ان يكون وصفا او تشبيها او حكمة او تاريخا احتاج الشاعر ان تكون له معرفة بنعوت الاشياء التي من شأن الشاعر ان يتعرض لوصفها، ولمعرفة مجاري امور الدنيا وانحاء تصرف الازمنة والاحوال، وان تكون له قوة ملاحظة لما

---

(١) حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الادباء: ٣٨.

(٢) المصدر نفسه: ٢١ وقارن بالصفحات: ٨١،٧١.

(٣) جابر عصفور: مفهوم الشعر: ٢٨٩.

ينـاسب الاشياء والقضايا الواقعة من اشياء اخرى تشبهها، وقضايا متقدمة تشبه التي في الحال[1] وهذا قول ينبىء بأن الشاعر قد يعايش بالفعل كل تجربة يعالجها في ابداعه، وينبىء ـ بنفس الوقت والقدر ـ بأن الشاعر قد يبدع في شعره تجارب لا تمت الى واقعه المعاش بصلة.

وقد نقول ان ثراء تجارب الشاعر قد يمكن من خلق تجارب جديدة، وعلى قدر هذا الثراء تكون الفائدة للشاعر والمتلقي، المهم ان يؤمن كل من الشـاعر والمتلقي بأهمية الشعر ونفعه، لان مثل هذا الايمان يفرض على الشـاعـر ـ بالتأكيد ـ ان يترفع فوق كل استرفاد، ويتطلب من المتلقي ان يساعده في هذا الاتجاه ولا يسير في الاتجاه المضاد له. ان التأثير الذي يمكن للشاعر ان يحدثه في متلقيه قرين تأثره ـ أصلا ـ بموضوع ابداعه، طالما ان الدافع الاساسي للنظم ذاتي متصل باغراض اول هي «امور تحدث عنها تأثرات وانفعالات للنفوس لكون تلك الامور مما يناسبها ويبسطها، او ينافرها ويقبضها، او لاجتماع البسط والقبض والمناسبة والمنافرة في الامر من وجهين: فالأمـر قد يبسط النفس ويؤنسهـا بالمسرة والرجاء، ويقبضها بالكآبة والخوف وقد يبسطها ايضا بالاستغراب لما يقع فيه من اتفاق بديع. وقد يقبضها ويوحشها بصيرورة الامر من «مبدأ سار الى مآل غير سار»[2]. ومعنى ما يقوله حازم كما افهمه ان الدافع الاساسي للنظم ذو علقة بادراك الشاعر لجلال الموقف الذي ينهض به في حياة الانسان على مستوى الفرد والجماعة، واذا كان الشاعر لا يقوى على نظم شعر حق دون باعث ذاتي ودون ادراك لقيمة الشعر في حياته وحياة متلقيه، فان من المنطقي ان تكون

---

(١) حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الادباء: ٤٢.
(٢) المصدر نفسـه: ١١.

الجماعة اكثر عجزا عن الافادة من الشعر ان هي لم تدرك قيمته في حياتها(١).

قد يرد حازم مثل هذا الادراك الى التعاطف مع الشعر(٢)، وقد يرتد هذا الادراك عند حازم الى الاعتقاد في الشعر انه حكم وانه غريم(٣). اما التعاطف مع الشعر فانه موجود في عهد الرجل، واما الاعتقاد بأهمية الشعر وجدواه وبفضل قول الشاعر وصدعه بالحكمة فيما يقول فانه معدوم على الجملة ايام حازم، والسبب في ذلك الاسترفاد بالشعر وهو امر ادى الى ازدراء الشاعر والنظر اليه على اعتبار انه طالب سيب رخيص.

وليس هناك من سبيل لدرء هذا السبب والرجوع بالشعر الى ما كان عليه ايام عزه وسؤدده خير من التركيز على المضمون الاخلاقي للشعر، والتأكيد على تصور اخلاقي يمتاح منه المبدعون ويفيد منه المتلقون وبمثل هذا الإلحاح ـ وهو إلحاح حرص عليه حازم كل الحرص كما أوضحت في الصفحات السابقة، يرتقي المبدع عن الاسترفاد الهين على حساب الفن، وترتفع درجة الاستعداد لقبول الشعر والتأثر بمعطياته. وبمثل هذا الالحاح ـ في النهاية ـ ترتفع قامة حازم عن قامات غيره من نقاد التراث ممن تأثر بهم الرجل في الموقف ذاته ـ موقف الاسترفاد بالشعر ـ او ممن ساير الشعراء في التقعيد للاسترفاد بالشعر والتأصيل للاستمناح به.

(١) جابر عصفور: مفهوم الشعر: ٢٩١.
(٢) حازم القرطاجني: منهاج البلغاء والادباء: ١٢١
(٣) المصدر نفسه: ١٢١-١٢٢.